فرنسا تعبر الى الزعامة الاوروبية من افريقيا السوداء

• موبوتو طلب من جيسكار تأييده في دعم اليمين في انغولا مقابل صفقة ضخمة من النحاس الزائيري!

جيسكار ديستان وموبوتو : الشكل فداء للجوهر ...

حين وطأ رئيس الجمهورية الفرنسية أرض زائير ، كانت في استقباله ، بطبيعة الحال ، فرقة الموسيقى الرئاسية . أتيح اذن لجيسكار ، وهو يحل ضيفا على اوفر البلدان الافريقية ، بعد زامبيا ، انتاجا للنحاس ، ان يملأ أذنيه بصدى الطبول ورنين الصنوج . ولم تكن الموسيقى هي كل ما سمعه الرئيس الفرنسي ، ولم تكن آلاتها النحاسية كل ما رآه .

■ فعلى الطريق من قصر الرخام ، الذي استضافه فيه موبوتو ، الى ملعب العشرين من أيار (مايو) كان يهتف بحياته مليون من الزائيريين (الكونغوليين سابقا) وكان مائة الف منهم ينتظرونه على مدارج الملعب .. رقص وغناء والوان فاقعة وصور يبنيها الرجال والنساء بأجسادهم ، حفاوة بضيف شاء لهم أن يروا في وجهه وجه أوروبا الجديدة .

الى أي مدى آمن جيسكار ديستان بصدق هذا التكريم ؟ ذاك ما لا نعرفه .. ما نعرفه هو أن كل مواطن في زائير يولد اليوم عضوا في « حركة الثورة الشعبية » وهي الحزب الزائيري الوحيد . واذا كان الرئيس موبوتو قد استدرج الى الملعب نصف سكان كنشاسا (العاصمة) فلان أطر الحزب يحيطون فعلا بجماهيره احاطة الاطار بالصورة . فلا يمر « التغيب غير المشروع » عن استقبال مقرر دون عقوبة مناسبة ..

موبوتو يطلب

ماذا فعل جيسكار في زائير ؟ كانت تلك رحلته الرابعة الى افريقيا ، خلال عام واحد مضى على فوزه بالرئاسة . وكان لذلك وقعه في كنشاسا . حرص موبوتو نفسه على الاشارة الى أن رؤساء أوروبا الاخرين لا يأتون بل يرسلون وزراءهم . كان جيسكار يثبت اذن انه يعرف مداخل الكرامة الافريقية .

هذه الكرامة أملت عليه حرصا كبيرا في التعامل مع موبوتو . عدا الاشادة المتكررة بشخص « المواطن — الرئيس » والتبني الكامل للصورة التي يقدمها هذا الاخير عن نفسه ، باع جيسكار لزائير أشياء غير الكلام وحقق في الصفقة ربحا وفيرا .

كان لرئيس زائير مطلب سياسي لم يتحفظ

في الادلاء به أمام ضيفه الفرنسي . فعلى أبواب بلاده في انغولا ، تستشري حرب أهلية لا يقف منها موبوتو موقف المتفرج . هو يدعم التنظيم اليميني هناك (الجبهة الوطنية لتحرير انغولا) في وجه « الحركة الشعبية » . وهو يريد من فرنسا موافقتها على هذه السياسة . فليس أمرا قليل الشأن أن ينشأ في المستعمرة البرتغالية (وهي على أعتاب استقلالها) نظام موال لنظام زائير . بل ان في ذلك خطوة يخطوها هذا البلد الشاسع نحو زعامة قارية، تطال البلدان الافريقية الواقعة في جنوب الصحراء الكبرى . ولن يخسر موبوتو كثيرا اذا سارت انغولا نحو التقسيم . ستكون دولة « الجبهة الوطنية » على حدوده ، ورهن اشارته ، بلا حول ولا طول . وهو لذلك قد أيد استقلال « كابندا » عن انغولا .. وفي كابندا بترول وافر ، وهي قطر صغير جمعه مع انغولا مصير مشترك منذ ٩٠ سنة ، رغم ان شريطا من أرض زائير يفصل بين حدودهما.

هل تحقق لموبوتو هذا الطلب ؟ في البيان المشترك الصادر بعد الزيارة ، اشارة ورعة الى انغولا لا يتمنى فيها الرئيسان عبور هذا البلد الى الاستقلال بهدوء . لكن تشديد البيان على « حق الشعوب في تقرير مصيرها » ليس مجرد تكرار لمبدأ معترف به ، بل هو وثيق الصلة بمشكلة كابندا . ثم ان الرئيس الفرنسي قد حرص على اتخاذ قرار اخر ، وهو يستعد لمغادرة زائير . أعلن أن فرنسا سوف تستثني السلاح الجوي والبري من مبيعاتها العسكرية للنظام العنصري في جنوب افريقيا . واذا علمنا ان الولايات المتحدة نفسها توقفت عن بيع السلاح لافريقيا الجنوبية منذ عام ١٩٦٣، وان فرنسا هي مصدر السلاح الاكبر الى هذا البلد ، حسبنا ان القرار المذكور ضربة قاصمة للنظام العنصري . لكن علينا أن نعلم أن هذا النظام أخذ ينتج بنفسه معظم سلاحه بعد أن دربت له فرنسا الفنيين اللازمين ومنحته صناعاتها الحربية براءات الانتاج .. ثم ان اتفاقات التسليح الموقعة سابقا بين البلدين سوف تنفذ .. وسوف تستمر فرنسا في بناء الاسطول الحربي الافريقي الجنوبي ..

حدود « النصر » وصدى النحاس

هذا كله ، بالطبع ، يوضح الحدود البالغة الضيق « للنصر الافريقي » الذي انتزعه موبوتو من جيسكار .. وليس غريبا هذا النصر ما دام موبوتو نفسه يقيم مع النظام العنصري اياه أوثق علاقات التصدير والاستيراد ... فتفوق صادرات زائير الى افريقيا الجنوبية حجم ما يستورده هذا البلد من بريطانيا العظمى . غير انه لا بد للرئيس الزائيري ، المتطلع الى الزعامة الافريقية ، من كسب رضا الافارقة .. وهو لذلك يكرر كل يوم رفضه للتمييز العنصري . ولا بد للرئيس الفرنسي ، وهو يلتف على أوروبا عبر افريقيا من تعبيد طريقه .. والكرامة في افريقيا قبل كل شيء .

كان صدى النحاس لا يزال يتبع الرئيسين، وهما يسافران مدة ثماني ساعات على نهر زائير .. ولم يكن لهما ان يغفلا حديث النحاس .. تنتج زائير نصف مليون طن من هذا المعدن ، كل عام ، وهي السادسة في انتاجه بين دول العالم . وقد تضاعف سعر النحاس ثلاث مرات ، متبعا بذلك سيرة النفط في العام الماضي .. لكن سعره الجديد عاد فهبط الى ما هو أدنى من النصف هذا العام (من ١٣٠٠ جنيه استرليني للطن الى ٦٠٠ جنيه فقط) .. هكذا اختل ميزان المدفوعات الزائيري اختلالا بينا ، لان النحاس يشكل ٨٠ بالمائة من قيمة صادرات البلاد . كان لا بد اذن من « جدولة » الديون المستحقة لفرنسا على زائير .. وهو أمر تم . لقاء ذلك بدأ البحث في صفقة نحاس طويلة المدى ، عريضة الحجم سوف يوقع العقد الخاص بها لاحقا .. وتعهدت فرنسا بالعمل على عقد مؤتمر لمستهلكي النحاس ومنتجيه يجري فيه تحديد شروط لعلاقة المستقبل . والمؤتمر والصفقة خطوتان في طريق رسمتها فرنسا لنفسها منذ بروز ازمة الطاقة : تعلن « استقلالها » أولا عن تكتل الدول المستهلكة الذي تتزعمه الولايات المتحدة .. تضمن تلبية حاجاتها ، ثانيا ، من بعض الاقطار المنتجة ، لمدى طويل وفي ظل شروط ممتازة .. تدعو ، ثالثا ، الى تفاهم جماعي بين المنتجين والمستهلكين ، يقترب ، قدر استطاعتها من موقف المنتجين ، طلبا للافضلية في حقول اخرى ..

الطاقة ، الطاقة ..

في اي حال لم يكن حديث الطاقة نفسها غائبا عن لقاء جيسكار — موبوتو .. فالنهر الذي يمنح زائير اسمه هو واحد من أضخم مصادر الطاقة في العالم ... مشروع « انغا الاول » ، مشروع « انغا الثاني » ، مشروع « انغا الثالث » ، مشروع « انغا الكبير » .. اسماء تحول اثنان منها الى منشآت على مصب النهر .. وحين ينفذ الثالث والرابع ، تنتقل طاقة المنطقة على انتاج الكهرباء من مليارين واربعمائة مليون كيلوواط — ساعة الى ثلاثمائة مليار ، ويكون قد تم في زائير بناء أكبر مجمع لانتاج الكهرباء في العالم قاطبة !.. حتى ان النظام لا يريد المضي قدما في التنفيذ الا بعد أن يضمن سوقا للطاقة المنتجة ، في الصناعة المحلية، وفي البلدان المجاورة ، التي تمد زائير بعضها بالكهرباء منذ الان ..والمرحلة الرابعة يكلف تنفيذها ستة مليارات من الفرنكات .. وهو مبلغ ضخم ، لكنه ، قياسا على حجم الانتاج ، تافه .. والشركات الفرنسية — وفي رأسها كهرباء فرنسا — تشرف على التنفيذ.. لكن حجم المشروع يحتم عليها اللجوء الى شركاء اخرين (بينهم شركات ايطالية) .. ثم انها ما زالت الى الان تعد الدراسات.

عدا ذلك ، سوف يتولى الفرنسيون بناء مصانع زراعية — غذائية في « القطاع الرئاسي » (وهو مجمع صناعي — زراعي انموذجي) وسوف يزيدون من عدد فنييهم العاملين في زائير .. أخيرا سيعودون — طبعا — الى دعوة « مؤتمر الدول المنتجة والمستهلكة للطاقة » .. واذا كانوا لن يبيعوا بعد الان الطائرات العسكرية لفورستر (في جنوب افريقيا) فهم سوف يبنون لموبوتو سلاح طيران كاملا ناجزا .. فلم يؤثر عن جيسكار ديستان — وهو خبير اقتصادي — ان يضحي بشيء في سبيل لا شيء .

قديم الاستعمار وجديده

لا يمكن القول اذن ان هذه الزيارة الفرنسية لزائير ، قد اقتصرت على التنزه فوق النهر أو على استعراض الجماهير في كنشاسا . فهي مرحلة من سياق يتكامل عبر صراع خفي احيانا، معلن احيانا ، الا انه ضروس في جميع

استقبال جيسكار في كنشاسا : الكرامة فوق كل شيء

جيسكار .. هذه هي زائير الحقيقية !

« اول ما عندي يمثل علم الغرب، وثاني ما عندي يمثل السلطة الموروثة وثالث ما عندي يمثل القوة والبأس ، وانا ، في جملتي ، اجسد الاصالة الافريقية .. » ذاك ما قاله الرئيس موبوتو سيسي سيكو عن نظارتيه وعصاه المنحوتة وقبعته المصنوعة من جلد الفهد وعن نفسه اخيراً لمندوب التلفزيون الفرنسي ..

« موبوتو الخلاق ، موبوتو البناء » ذاك ما ترددد الجماهير الخاشعة بعد مسؤولي الحزب .. ولا يشعر صاحب الشأن بأي حرج : « انا القائد . وأنا أحب ان يحبني شعبي ، فمن دواعي السرور ان تعرف انك محبوب. بعض الناس يقتلون انفسهم لينالوا هذا » !..

كانت أم الرئيس تفضله على سائر اخوته .. كانت تعلم ان القدر قد اعده لمهمة عظيمة . انذاك كان لا يزال يحمل الاسم الذي فرضه عليه الاستعمار البلجيكي : جوزيف ديزيربه . ومن على فراش الموت ، قالت أمه : « جوزيف هو قائدكم ، وعليكم ان تطيعوه » ..

نجح في ماذا ؟ في ضبط ٢٤ مليون من الزائيريين يسير القادرون منهم صفا صفا ويهتفون : « انضباط ، انضباط .. » .

هل نجح موبوتو في انجاز شيء اخر لجماهير زائير ؟ يجيء الجواب على هذا السؤال من حيث ينبغي ان يجيء .. من منظمة سرية اسمها « الحركة الوطنية الكونغولية » ما تزال امينة لعهد شهيد النضال الافريقي باتريس لومومبا .. كتب مسؤول الحركة

موبوتو : النظارتان والعصا والقبعة

المذكورة في باريس الى رئيس الجمهورية الفرنسية يقول :

« نعم ، سيدي الرئيس ، سيكون جميلا مشهد الرجال والنساء والاطفال وهم يهتفون لك ويغنون ويرقصون .

ستكون جميلة صور رحلتك التي سوف يراها الفرنسيون والفرنسيات على الشاشة الصغيرة .. جئنا نطلب الى شعب فرنسا ورئيسها ان يتضامنا ، معنويا ، لحظة واحدة ، مع زائير الحقيقية التي لن يكون لرئيس الجمهورية الفرنسية شرف زيارتها أو رؤيتها .. زائير الشعب المعدم ، المجرد من حقوقه الاجتماعية ، لاطرقات له ولا مستشفيات ولا مستوصفات ولا مدارس تستحق اسمها .. الشعب الجائع ..

« ما نطلبه بالحاح هو ان تتجاوزا، أنت والشعب الفرنسي ، المشهد الرسمي لهذه الزيارة وان تشاركا معنويا في بؤس هؤلاء الرجال والنساء والاطفال .. وهم ما زالوا لا يطلبون التقليل من الفوارق الاجتماعية ، بل يطلبون ادنى ما هو ضروري للبقاء والحفاظ على كرامتهم الانسانية .

« ما أردناه من هذه الرسالة بسيط ، وهو أن ندعو شعب فرنسا وندعوكم ، انطلاقا من مبدأ التضامن البشري ، الى التعاطف أدبيا مع شقاء شعب برمته افقرته ارادة رجل واحد ، فأمسى مسمر البصر الى مائدة البذخ ، ينتظر يائسا سقوط الفتات .

« ان التجمع الديمقراطي للشعب الكونغولي ، الملقب بالزائيري ، يتمنى لكم سفرا سعيدا . وامنيته الوحيدة عليكم هي أن تقولوا لشعب زائير ، ولو بالنظرة وبلهجة الكلام ، انكم — خارج أي اعتبار دبلوماسي — تشعرون بقسوة مصيره وترونها وتتعاطفون معه فيها ولا تخفيها عليكم صورة فولكلورية معدة للخارج ، وقحة وساخرة » .

نسكت هنا لئلا يدخل صوت ثالث في هذه المواجهة الصافية .

الاحوال . هذا السياق هو اعادة صياغة العلاقات بين الدول الامبريالية والمستعمرات السابقة .. والصراع الذي بدأ مع تماسك العديد من الكتل والانظمة في العالم الثالث في وجه اشكال الاستغلال القديمة ، يتمثل في التنافس بين الدول الامبريالية على اقتراح اشكال جديدة من الاستغلال .. أما جدة هذه الاشكال فهي انها تتيح ، في عدد من اقطار العالم الثالث فقرا يظل حبل سرته موصولا بالسوق الامبريالية .. لكن ميزته انه نمو ، على اي حال ، وانه يرضي انظمة لا تستطيع، بسبب طبيعة الصلة بينها وبين جماهيرها ، ان تفتح عهد نمو « ذاتي المركز » (حسب عبارة سمير أمين) أي عهد نمو اشتراكي (في حالة العالم الثالث) .. في مرحلة التمخض هذه يبحث الاوروبيون (وخاصة الفرنسيون) عن خروق في شبكة السيطرة الامبركية .. ويعثرون عادة على خروق سياسية أو ثقافية يتم منها دخولهم الاقتصادي . وهم ليسوا ، في جميع الحالات ، عاجزين عن عرض شروط اقتصادية افضل من الشروط الامبركية . لكن الطابع الامبريالي للعلاقة ليس رهنا بشروط صفقة ما ، بل بالبنية الانتاجية التي تستقبل هذه العلاقة . اذا حين ينفي جيسكار «الصبغة الامبريالية» عن علاقة بلاده بزائير أو بسواها، يصعب علينا تصديقه .. لكن هذه المسألة تحتاج الى البحث على صعيد آخر .. ■